**فإن قُلْتَ:** ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة؟ **قُلْتُ:** هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم.

وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾.

**﴿صفًا صفًا﴾** ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفًا بعد صف محدقين بالجن والإنس.

وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾.

**﴿وجيء يومئذٍ بجهنم﴾** كقوله: **﴿برزت الجحيم﴾**[1] وروي أنها لما نزلت تغير وجه رسول الله ﷺ، وعرف في وجهه، حتى اشتدّ على أصحابه. فأخبروا عليًا رضي الله عنه فجاء فاحتضنه من خلفه وقبله بين عاتقيه، ثم قال: يا نبيّ الله ـ بأبي أنت وأمي ـ ما الذي حدث اليوم؟ وما الذي غيرك؟ فتلا عليه الآية. فقال علي له: كيف يجاء بها، قال: يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع[2]. أي: يتنكر ما فرّط فيه أو يتعظ. **﴿وأنى له الذكرى﴾** ومن أين له منفعة الذكرى، لا بد من تقدير حذف المضاف. وإلا فبين: يوم يتذكر وبين: وأنى له الذكرى تنافٍ وتناقض.

يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾.

**﴿قدّمت لحياتي﴾** هذه وهي حياة الآخرة، أو وقت حياتي في الدنيا. كقولك: جئته لعشر ليالٍ خلون من رجب، وهذا أبين دليل على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقًا بقصدهم وإرادتهم وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصي كمذهب أهل الأهواء والبدع وإلا فما معنى التحسر.

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾.

قرئ: بالفتح يعذب ويوثق، وهي قراءة رسول الله ﷺ. وعن أبي عمرو: أنه رجع إليها في آخر عمره. والضمير للإنسان الموصوف. وقيل: هو أبي بن خلف. أي: لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه لتناهيه في كفره وعناده، أو لا يحمل عذاب الإنسان أحد كقوله: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾**[3] وقرئ: بالكسر، والضمير لله تعالى أي: لا يتولى عذاب الله أحد لأنّ الأمر لله وحده في ذلك اليوم، أو للإنسان أي: لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه.

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾.

**﴿يا أيتها النفس﴾** على إرادة القول أي: يقول الله للمؤمن يا أيتها النفس. إمّا أن يكلمه إكرامًا له كما كلم موسى صلوات الله عليه، أو على لسان ملك. و**﴿المطمئنة﴾** الآمنة التي لا يستفزها خسوف ولا حزن وهي النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك، ويشهد للتفسير الأوّل قراءة أبيّ بن كعب: يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة.

**فإن قُلْتَ:** متى يقال لها ذلك؟ **قُلْتُ:** إمّا عند الموت، وإمّا عند البعث، وإمّا عند دخول الجنة.

ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾.

على معنى **﴿ارجعي﴾** إلى موعد ربك **﴿راضية﴾** بما أوتيت **﴿مرضية﴾** عند الله.

فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾.

**﴿فادخلي في عبادي﴾** في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلكهم.

وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾.

**﴿وادخلي جنتي﴾** معهم. وقيل: النفس الروح، ومعناه: فادخلي في أجساد عبادي. وقرأ ابن عباس: فادخلي في عبدي، وقرأ ابن مسعود: في جسد عبدي، وقرأ أبيّ: ائتي ربك راضية مرضية، ادخلي في عبدي، وقيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب. وقيل: في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة. فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحوّل وجهي نحو قبلتك، فحوّل الله وجهه نحوها، فلم يستطع أحد أن يحوّله، والظاهر العموم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له، ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نورًا يوم القيامة»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## سورة البلد مكية

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾.

أقسم سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أن الإنسان خلق مغمورًا في مكابدة المشاق والشدائد. واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله:

وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾.

---

(1) سورة النازعات، الآية: 36.

(2) ذكره الواحدي والثعلبي وابن مردويه في تفاسيرهم، الزيلعي 4/ 206.

(3) سورة النجم، الآية: 38.

(4) ذكره الواحدي وابن مردويه والثعلبي في تفاسيرهم، الزيلعي 4/ 207.

﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ يعني: ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم. عن شرحبيل: يحرّمون أن يقتلوا بها صيدًا ويعضدوا بها شجرة، ويستحلون إخراجك وقتلك. وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته. أو سلى رسول الله ﷺ بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد واعترض بأن وعده بفتح مكة تتميمًا للتسلية والتنفيس عنه. فقال: وأنت حل بهذا البلد، يعني: وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر، وذلك أنّ الله فتح عليه مكة وأحلها له وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له، فأحل ما شاء وحرّم ما شاء. قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار أبي سفيان[1]. ثم قال: إنّ الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد. فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا. فقال ﷺ: إلا الإذخر[2].

**فإن قُلْتَ:** أين نظير قوله: وأنت حل في معنى الاستقبال؟ **قُلْتُ:** قوله عز وجل: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾[3] ومثله واسع في كلام العباد. تقول لمن تعده الإكرام والحباء: أنت مكرم محبو. وهو في كلام الله واسع لأنّ الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة، وكفاك دليلاً قاطعًا على أنه للاستقبال وأن تفسيره بالحال محال أن السورة بالاتفاق مكية وأين الهجرة عن وقت نزولها فما بال الفتح.

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾.

**فإن قُلْتَ:** ما المراد بوالد وما ولد! **قُلْتُ:** رسول الله ﷺ ومن ولده. أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل وبمن ولده وبه.

**فإن قُلْتَ:** لم نكر؟ **قُلْتُ:** للإبهام المستقل بالمدح والتعجب.

**فإن قُلْتَ:** هلا قيل ومن ولد؟ **قُلْتُ:** فيه ما في قوله: والله أعلم بما وضعت. أي: بأي شيء وضعت، يعني: موضوعًا عجيب الشأن. وقيل: هما آدم وولده. وقيل: كل والد وولد.

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾.

والكبد: أصله من قولك: كبد الرجل كبدًا فهو أكبد إذا وجعت كبده وانتفخت، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة. ومنه اشتقت المكابدة كما قيل: كبته، بمعنى: أهلكه. وأصله كبده إذا أصاب كبده. قال لبيد:

يا عين هلا بكيت أربد إذ ... قمنا وقام الخصوم في كبد

أي: في شدة الأمر وصعوبة الخطب.

أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾.

والضمير في ﴿أيحسب﴾ لبعض صناديد قريش الذي كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد، والمعنى: أيظن هذا الصنديد القوي في قومه المتضعف للمؤمنين أن لن تقوم قيامة ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه.

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾.

ثم ذكر ما يقوله في نلك اليوم وأنه يقول: ﴿أهلكت مالاً لبدًا﴾ يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ويدعونها معالي ومفاخر.

أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾.

﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ حين كان ينفق ما ينفق رئاء الناس وافتخارًا بينهم، يعني: أن الله كان يراه وكان عليه رقيبًا، ويجوز أن يكون الضمير للإنسان على أن يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الشريف، ومن شرفه أنك حل به مما يقترفه أهله من المآثم متحرج بريء، فهو حقيق بأن أعظمه بقسمي به. لقد خلقنا الإنسان في كبد أي: في مرض وهو مرض القلب وفساد الباطن. يريد الذين علم الله منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات. وقيل: الذي يحسب أن لن يقدر عليه أحد هو أبو الأشد وكان قويًا يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فلا ينزع إلا قطعًا ويبقى موضع قدميه. وقيل: الوليد بن المغيرة. لبدًا: قرئ بالضم والكسر، جمع لبدة، ولبدة وهو ما تلبد يريد الكثرة. وقرئ: لبدًا بضمتين، جمع لبود، ولبدًا بالتشديد جمع لابد.

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾.

﴿ألم نجعل له عينين﴾ يبصر بهما المرئيات.

وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾.

﴿ولسانًا﴾ يترجم عن ضمائره، ﴿وشفتين﴾ يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك.

---

(1) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: قتل الأسير (الحديث رقم: 3044)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: جواز دخول مكة بغير إحرام (الحديث رقم: 450. 1357).

(2) رواه البخاري في كتاب: جزاء الصيد، باب: لا يحل القتال بمكة (الحديث رقم: 1834)، ومسلم في كتاب: الحج، باب: تحريم مكة = وصيدها (الحديث رقم: 445. 1353).

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/217. وأحمد في المسند 4/299 والبيهقي في الشعب، باب: في العتق ووجه التقرب إلى الله عز وجل (الحديث رقم: 4335).

وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾.

**﴿وهديناه النجدين﴾** أي: طريقي الخير والشر. وقيل: الثديين.

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾.

**﴿فلا اقتحم العقبة﴾** يعني: فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة من فك الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين، ثم بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة وأساس كل خير، بل غمط النعم وكفر بالمنعم والمعنى: أنّ الإنفاق على هذا الوجه هو الإنفاق المرضي النافع عند الله لا أن يهلك مالاً لبدًا في الرياء والفخار فيكون مثله كمثل ريح صر أصابت حرث قوم الآية.

**فإن قُلْتَ:** فلما تقع لا الداخلة على الماضي إلا مكررةً. ونحو قوله: فأي أمر سيئ لا فعله لا يكاد يقع فما لها لم تكرر في الكلام الأفصح! **قُلْتُ:** هي متكررة في المعنى لأن معنى: فلا اقتحم العقبة، فلا فك رقبةً ولا أطعم مسكينًا، الا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك. وقال الزجاج قوله ثم كان من الذين آمنوا يدل على معنى: فلا اقتحم العقبة ولا آمن. والاقتحام، الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة، والقحمة الشدة وجعل الصالحة عقبة وعملها اقتحامًا لها لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس. وعن الحسن: عقبة، والله شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾.

**﴿وما أدراك ما العقبة﴾** اعتراض ومعناه: أنك لم تدر كنه صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند الله.

فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾.

وفك الرقبة تخليصها من رق أو غيره. وفي الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: دلني على عمل يدخلني الجنة. فقال: تعتق النسمة وتفك الرقبة. قال: أوليسا سواء. قال: لا إعتاقها أن تنفرد بعتقها، وفكها أن تعين في تخليصها من قود أو غرم. والعتق والصدقة من أفاضل الأعمال. وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أن العتق أفضل من الصدقة. وعند صاحبيه الصدقة أفضل. والآية أدل على قول أبي حنيفة لتقديم العتق على الصدقة. وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة أيضعه في ذي قرابة أو تعتق رقبة؟ قال: الرقبة أفضل، لأنّ النبي ﷺ قال: «من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار»[1]. قرئ: فك رقبة أو إطعام، على هي فك رقبة أو إطعام. وقرئ: فك رقبة أو أطعم على الإبدال من اقتحم العقبة. وقوله:

أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾.

والمسغبة والمقربة والمتربة: مفعلات من سغب إذا جاع وقرب في النسب. يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي. وترب: إذا افتقر. ومعناه: التصق بالتراب. وأما أترب فاستغنى. أي: صار ذا مال كالتراب في الكثرة. كما قيل: أثرى، وعن النبي ﷺ في قوله: ذا متربة؛ الذي مأواه المزابل[2]. ووصف اليوم بذي مسغبة نحو ما يقول النحويون في قولهم: هم ناصب ذو نصب. وقرأ الحسن: ذا مسغبة نصبه بإطعام، ومعناه: أو إطعام في يوم من الأيام ذا مسغبة.

ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾.

**﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾** جاء بثم لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا في الوقت، لأنّ الإيمان هو السابق المقدّم على غيره ولا يثبت عمل صالح إلا به. والمرحمة، والرحمة. أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على الإيمان والثبات عليه، أو بالصبر عن المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن. وبأن يكونوا متراحمين متعاطفين، أو بما يؤدي إلى رحمة الله.

أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾.

الميمنة والمشأمة اليمين والشمال، أو اليمن والشؤم. أي: الميامين على أنفسهم والمشائيم عليهنّ.

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾.

قرئ: موصدة بالواو والهمزة، من أوصدت الباب وآصدته إذا أطبقته وأغلقته. وعن أبي بكر بن عياش: لنا إمام يهمز مؤصدة فأشتهي أن أسدّ أذني إذا سمعته. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ: لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الأمان من غضبه يوم القيامة»[3].

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 2/211.

(2) ذكره ابن مردويه من رواية مجاهد عن ابن عمر وأخرجه الحاكم في المستدرك عند ابن عباس بنحوه. ابن حجر ص 185.

(3) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم. الزيلعي 4/215.